توماس هود وأغنية القميص

بقلم الاستاذ أحمد الشنتناوى

ليسانسيه فى التاريخ والاداب وليسانسيه فى الفلسفة والاجتماع

ولد «توماس هود» فى شهر مايو عام ١٧٩٩، وتوفى فى شهر مايو عام ١٨٤٥؛ واختلط إبان تلك الفترة التى عاشها بجمهرة من أدباء انجلترا وشعرائها، أمثال: اللورد بيرون، والشاعر تنيسون، والشاعر برونج؛ وكانت له معهم عدة مساجلات ومناقشات أدبية شائقة، كذلك تعرف هود فى أواخر أيامه إلى الناثر الانجليزى الأشهر شارلس لامب، وهذا وصفه - فى إحدى رسائله للشاعر والناقد الانجليزى الأشهر كوليردج - بقوله: «شاب صامت، بل مريض، قابلته أنت ذات يوم فى اسلنجتن Islington»، ثم اختتم نفس الرسالة بقوله: «عاد اليوم وقد أشرقت عيناه الناعستان ببريق الصحة والعافية عند ما قرأ مديحك وثناءك عليه».

وكان «توماس هود» يجد لذة فائقة فى التحدث إلى الشاعرين: وردثورث وكوليردج، وكان يجتهد فى أن يتقابل معهما كثيراً، على الرغم من انزوائه فى عقر داره، وانغماسه فى أعماله الأدبية المتواصلة.

ثم تمكن كذلك - خلال حياته القصيرة - من التعرف إلى شارلس ديكنز الروائى الانجليزى الأشهر، بل عقدت أواصر المحبة بين الأديبين، وقد ذكر ولد هود وابنته فى مذكراتهما عن أبيهما الشىء الكثير عن العلائق الودية التى كانت قائمة بين والدهما وبين ديكنز، وكم كان هذا الأخير يزور والدهما إبان مرضه يواسيه ويسرى عن نفسه الكئيبة، لأن هود كان من زمرة الضعفاء المعتلى الصحة، وهؤلاء فى الغالب تكون نفوسهم متشائمة مريضة بمرض أجسامهم. ولقد ازدادت علة هود منذ زواجه، كذلك ساءت حاله المالية، فكانت الحاجة الملحة تسوقه سوقاً إلى الكتابة فى الصحف والمجلات كى يكسب قوته وقوت عياله، سواء أرضى عن ذلك القلم، أم وقف جامداً لا حياة فيه ولا حرارة، لهذا فقد كان هود يراسل عدة صحف أدبية، وينشر فيها قطعه الشعرية، ويريق عليها عصارة ذهنه وقلبه من بين شقى اليراع.

وعند ما يكتب الأديب والروائى الانجليزى المعروف «ثاكيراى» عن هود، يجتهد فى أن يبين للملأ أن له ضلعاً كبيراً فى تكييف حياة الشاعر الأدبية، وأنه هو الذى يخط له خطته فى ميدان الأدب، وكم كان يغضب «ثاكيراى» عند ما يرى هود يحيد عن الخطة التى رسمها له، وكأنه تناسى أن الشاعر إنما يكتب لأجل كسب قوته وقوت زوجه وعياله، ولو كان هود

يتغنى فقط إرضاء لالهة الشعر لمات هو وزوجه وبنوه من الطوى .

لم يكن هود يميل إلى اللهو والمجون ـ كما يميل إلى ذلك الكثيرون من الشعراء وأهل الأدب ـ إذ قلما كنت تراه ضاحكا أو منهمكا فى شىء من الشئون الاجتماعية ، فهو من هذه الناحية كان قليل المعشر ، لم تتردد عليه إلا فئة قليلة من الأدباء والشعراء ممن عرفوا فضله ، وما تكنه نفسه من شاعرية وعبقرية ؛ ولقد وصفه أحد هؤلاء الشعراء بقوله : « هو شاعر غنائى مجيد ، ذو أغراض جدية » ، ولعل أهم أسباب تلك الكآبة التى كانت تخيم على هود ، هو فقره واحتياجه للمال لحفظ كيان عائلته .

أما من حيث أشعاره ، فقد اتصفت بالسلاسة والعذوبة ، يتألق فى سطورها وهج العبقرية والخيال العميق ـ وهذا ما اتفق عليه جميع نقاد هود ـ ، كذلك كان هود صحفياً ماهراً ، وقصصياً لبقاً ، ولقد وصفه ثاكيراى بقوله : « هو شاعر له قوة على مس القلوب ، لا يجاريه فى ذلك أحد » ، ولقد أوصى هود أن يكتب على قبره هذه الجملة « هـذا قبر من غنى أغنية القميص » ... ولقد آثرنا أن ننقل تلك الأغنية الشعرية إلى اللغة العربية شعراً منثوراً ، كى نحافظ قدر الامكان على النص الانجليزى ، إذ أن للشعر المنظوم أحكامه وقيوده ، وقد يخرجنا هذا عن النص الانجليزى ، ونحن قد آلينا على أنفسنا أن نكون أمناء فى التعريب فلا نجيز لأنفسنا حق التصرف الذى يلجأ إليه الكثيرون من المعربين .

ولقد تصور هود فى تلك القصيدة امرأة فقيرة تجلس منذ الصباح المبكر حتى المساء تخيط ثياب الناس فى حجرتها الوضيعة المعتمة نظير أجر ضئيل تتقاضاه لا يكاد يقوم بأودها رغم هذا العمل الشاق المضنى ، وهى حال كثيراً ما نرى أمثالها بين ظهرانينا ، ولكن جلبة الحياة وضوضاءها قد ألهتنا عن سماع أمثال تلك الأنات الصادرة عن تلك النفوس البائسة الحزينة :

بأنامل واهنة كليلة
وأجفان مقروحة ثقيلة
جلست امرأة فى خلق بالية
تعمل بإبرتها وخيوطها
تلفق وترقع وترتق
فى فقر وطوى وقذارة
وبنغم حزين مكتئب
تغنى أغنية القميص

ooo

« أعمل وأكد وأكدح
إذا ما صاحت الديكة البعيدة
أعمل وأكد وأكدح
إلى أن يلوح النجم من فرج الخباء
واهاً لنفسى كأنى عبد ذليل
فى أسر سيد عنيد من الأتراك القاس
روح النساء عندهم بدرهم لا تقاس
تأبى ذلك التوراة والانجيل »

ooo

« أعمل وأكد وأكدح
إلى أن يصيب رأسى الدوار
أعمل وأكد وأكدح
إلى أن يئن الجفن من الآلام
أرتق وأبطن ثم أعصب (١)
وأعصب وأبطن ثم أرتق
إلى أن أسقط فوق الأزرار
ولكنى أخيطها فى أحلامى »

***

« يا للرجال ذوى الأخوات العزيزة
ويا للرجال ذوى الأمهات والأزواج
ليست هذه أصواتاً تبلى
لكنها ذوب مخلوقات تعيسة
ألفق وأرقع وأرتق
فى فقر وطوى وقذارة
وفى آن واحد ، وبخيط مزدوج
أخيط كفنا كما أخيط قميصا..! »

***

« لكن عن الموت ما لى أفيض مقالى
وعن شبح العظام النخرة البوالى
إنى أهاب ذاك الخيال المعتم
ولكن ما أشد شبهه بى
لكن ما أشد شبهه بى
لشدة الطوى ، وشدة ما بى
يا إلهى ! ما أثمن ذلك الخبز
وأرخص هذا اللحم والدم ! »

***

« أعمل وأكد وأكدح
ليس لعملى آخر أو نهاية
وما جزاؤه ؟ فراش من القش
وكسرة من الخبز ، وخلق بالية
وسقف مخروم ، وأرض عارية
وكرسى محطم وبجانبه خوان
وحائط باهت عليه خيالى
ينعكس فى أغلب الأحيان »

***

« أعمل وأكد وأكدح
عملا منهكا ليس له نهاية
أعمل وأكد وأكدح
كما يكد السجين تكفيراً عن جناية
أرتق وأبطن ثم أعصب
وأعصب وأبطن ثم أرتق
إلى أن يئن القلب ، وتدور رأسى
وتشكو الألم أعصاب اليدين »

***

« أعمل وأكد وأكدح
على ضوء شهر ديسمبر المعتم
أعمل وأكد وأكدح
عند ما يدفأ الطقس ويبرق
وعند ما تطل صغار الطير
من بين فروج أوكارها
تزهو بزهورها الذهبية
تبشرنى بقدوم الربيع المشرق »

***

« من لى باستنشاق النسيم العليل
المعطر بأرج أزهار الربيع وورود
بينما السماء مشرقة فوق الهام
والأرض معشبة تحت الأقدام
ساعة واحدة قصيرة الأجل
أشعر فيها بعز مضى على عجل

(١) عصب الثوب : ضم ما تفرق منه .

قبل أن اعرف ذل الحاجة
وطول الكد نظير لقمة أتبلغها »

***

« من لى بساعة واحدة قصيرة
أو مهلة عاجلة وجيزة
ليست للحب أو لمناشدة الأمل
ولكنها للحزن وبث الهموم
فالبكاء سلوى لقلبى المكلوم
وعلى الدمع فى محاجره الملاحة
أن يجمد فلا تترقرق قطراته
فكل واحدة تعيق الخيط والخياط(١)»

***

« أرتق وأبطن ثم أعصب
وأعصب وأبطن ثم أرتق
أعمل وأكد وأكدح
كالآلة سيرها البخار
سداها الحديد ولحمتها النار
تعمل لصالح ذوى اليسار
دون عقل يفكر، وكأن قلبها
قد قد من صلب الأحجار »

***

بأنامل واهنة كليلة
وأجفان مقروحة تقيلة
جلست امرأة فى خلق بالية
تعمل بابرتها وخيوطها
تلفق وترقع وترتق
فى فقر وطوى وقذارة
وبنغم حزين مكتئب
(ويا ليته يصل إلى آذان الأغنياء)
تغنى أغنية القميص

أحمد الشنتناوى

(١) الخياط : الابرة

واجبك ..! هل أديته ؟

انك ستؤديه بلا ريب ..

أيها الشباب المثقف :

إن مجلة « المعرفة » سبيلكم إلى الثقافة الصحيحة ، وهى المجلة المصرية التى يضطلع بأعبائها الشاقة أحد مواطنيكم ؛ فليكن تعضيدكم إياه مشجعاً له ولغيره . . على إحياء القومية المصرية

هذا واجبكم فأدوه